تاريخ رحمة بن جابر

معركة شرسة بين الشيخ أحمد بن سلمان ورحمة بن جابر تنتهي بالقضاء على رحمة

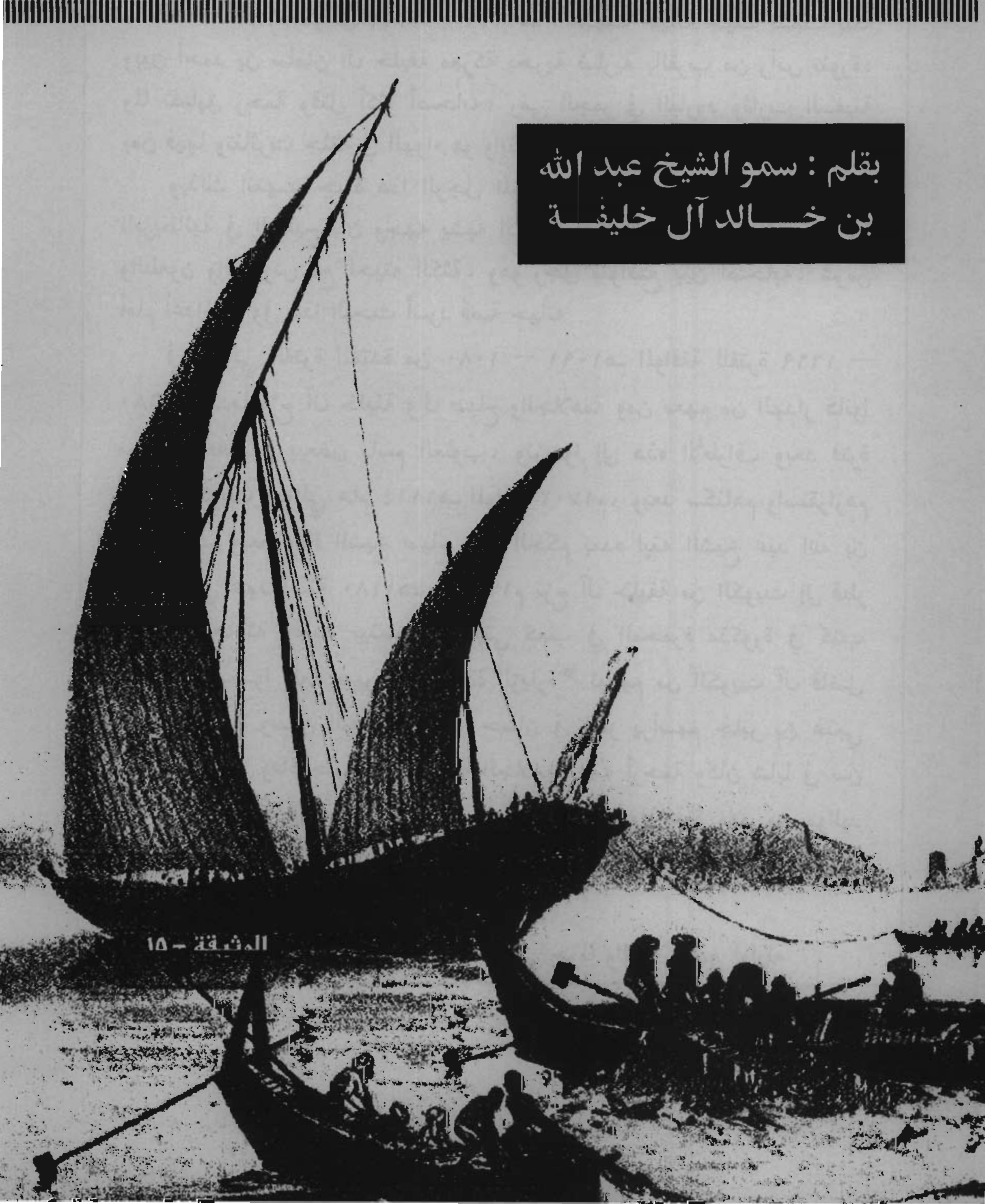
رحمة بن جابر في سطـور

يعتبر رحمة بن جابر بلا جدال بحاراً بارعاً ومقاتلاً يمتاز بالذكاء والإقدام، احتل في تاريخ البحرية الخليجية مكاناً بارزاً وظل اسمه يتردد في المنطقة، بل وفي أوروبا لمساحة زمنية امتدت لربع قرن وقد كانت حياة هذا المقاتل سلسلة من المعارك المتصلة والشرسة . . حاول خلالها أكثر من مرة الهجوم على البحرين ولكنه باء بالفشل . وقد ولد رحمة بن جابر في الكويت عام ١٧٥٦م وكان أبوه جابر بن عذبي شيخ الجلاهمة وقد هجر الجلاهمة والفاضل الكويت خلف بني خليفة أولاد عمهم إلى قطر . . واستقر الجلاهمة في خور حسان في الوقت الذي كان فيه آل خليفة يؤسسون دولتهم في الزبارة . وبعد موت جابر أصبح رحمة رئيساً لقبيلة الجلاهمة وهو بعد شاب في سن العشرين يملؤه طموح شديد وتدفعه أطماع لا تقف عند حد وتطلع كبير في أن ينشئ لنفسه دولة كما فعل آل خليفة، وأخذ طوال حياته الباكرة يتغنى شعراً بهذا الحلم العريض . وقد دفعته أطماعه التي لا تهدأ، كما دفعه النجاح الذي حققه آل خليفة في إنشاء دولتهم إلى أن تحول إلى خطر يهدد أمن الخليج . . وجعل من نفسه عدواً للبحرين فعقد أكثر من تحالف لمهاجمتها وفشل فأخذ يطارد سفنها في الخليج وتحول إلى قرصان عنيد يستولي على أي سفينة يتمكن منها حتى أطلق عليه الإنجليز اسم قرصان الخليج واستمرت حياته على هذا النسق حتى خرج له من البحرين بطل لا يقل عنه حنكة أو براعة أو ذكاء هو الشيخ أحمد بن سلمان آل خليفة وتمكن البطل البحريني من مطاردته واللحاق به فلما وجد رحمة بن جابر أنه خاسر لامحالة أشعل النار في البارود الموجود في سفينته فتطايرت في الهواء وتمزقت أشلاؤه وأشلاء ابنه الصغير . وفي السطور التالية يستعرض سمو الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة سطوراً موثقة من حياة رحمة بن جابر .

(الوثيقة)

الجلاهمة وسيرته التاريخية

بقلم : سمو الشيخ عبد الله
بن خـــالد آل خليفـــة



الحلقة - ١٥

تاريخ رحمة بن جابر الجلاهمة الذي أرعب الخليج لمدة ربع قرن من ١٨٠١ – ١٨٢٦م الموافق ١٢١٧ – ١٢٤٢هـ . انتهت حياته حيث نشبت بينه وبين أحمد بن سلمان آل خليفة معركة بحرية ضارية بالقرب من رأس تنورة، ولما تضايق رحمة وقتل أكثر أصحابه، رمى الجمر في البارود وثارت السفينة بمن فيها وتناثرت جثته في الهواء هو وابنه الصغير .

وبذلك انتهت حياة هذا الرجل المرعب الذي وصفه أحد رجال الدولة البريطانية في الخليج بأن وجهه يشبه الأسد، لما يملأ وجهه من آثار الجروح والطعون والخدوش مع لحيته الكثة، وهو رجل متواضع بين أصحابه، شرس أمام أعدائه . وفي هذا البحث أسرد قصة حياته .

في حوالي الفترة الممتدة من ١٠٨٠ – ١٠٩١هـ الموافقة للفترة ١٦٦٩ – ١٦٨٠م عندما نزح آل خليفة وآل صباح والجلاهمة ومن معهم من الهدار كانوا مرتبطين بعضهم ببعض باسم العتوب، ونزحوا إلى هذه الأطراف وبعد فترة سكنوا الكويت حوالي عام ١١١٤هـ الموافق ١٧٠٢م، وبعد سكناهم واستقرارهم في الكويت وبعد وفاة الشيخ صباح تولى الحكم بعده ابنه الشيخ عبد الله بن صباح، وفي عهده سنة ١١٨٠هـ - ١٧٦٦م نزح آل خليفة من الكويت إلى قطر على أثر حادثة وقعت بينهم وبين بني كعب في المحمرة مذكورة في كتب التاريخ، وأسسوا قلعة مريروعمروا بلدة الزبارة . تبعهم من الكويت آل فاضل وآل جلاهمة، وسكن الجلاهمة خور حسان في قطر يرأسهم جابر بن عذبي الجلاهمة وبعد وفاة جابر ترأس قبيلة الجلاهمة ابنه أرحمة وكان شابا في سن العشرين ونفسه تراوده أن يحكم بلداً وأن ينشئ حوله قوة وهو من مواليد الكويت سنة ١١٧٠هـ الموافق ١٧٥٦م، وهو شاعر ويقول في شعره مفتخراً بنسبه :

جِد قال ابن كلثوم قبلي مثايل   على حرنا والحر يرجع لوايله

تخـــر جبابـرة المناصب سجـد   إذا فطـم منـــا تغلبي حمايلـه

معارضاً بيت عمرو بن كلثوم في معلقته التي قالها بعد قتله عمرو بن هند ملك الحيرة والتي مطلعها :

ألا هبي بصحنك فأصبحينا   ولا تبقي خمـــور الأندرينا

ويقول :

إذا بلغ الفطــام لنــا رضيع   تخر له الجبـــابر ساجدينا

وهو ينتسب إلى قبيلة تغلب بن وائل كأبناء عمه من آل خليفة وآل صباح ومن نزح معهم من الهدار وفي هذه الفترة من أوائل القرن التاسع عشر أي سنة ١٢١٧هـ - ١٨٠١م، أخذت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الانتشار واحتل الأمير سعود الكبير الإحساء فأرسل والي بغداد قوة من الجيش العثماني لإخراج سعود من الإحساء فوصلت القوة إلى الإحساء وبدأ قائد الجيش في حصار سعود في الإحساء .

وطالت مدة الحصار وكان في القوة عدد كبير من عرب المنتفق، وخشي القائد أن يميل العرب إلى صف الإمام سعود فانسحب بجيشه وانتصر الإمام سعود، وزحف على الكويت والعراق ودخل بغداد واحتل مراقد الأئمة في النجف وكربلاء ونهب جميع الذهب والتحف التي فيها، وانسحب إلى الدرعية وعلى أثر ذلك التحق رحمة بن جابر بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأصبح من رجالها المخلصين وأصبح ضد قبيلة العتوب الذين نزحوا من الزبارة إلى جزيرة البحرين وبدأ يهاجم سفنهم تحت إمرة الدولة السعودية الأولى وطلب من الإمام سعود الرخصة بأن ينزل الدمام فسمح له بذلك وبنى حصن الدمام مع قبيلته وساندته قبيلة البوسميط متحالفاً معهم، وفي هذه الظروف سنة ١٨٠١م - ١٢١٧هـ هاجم سلطان مسقط البحرين بجيوش

جرارة، وحاصر البحرين، ولما رأى آل خليفة كثرة الجيوش والسفن التي قادها سلطان مسقط ارتأوا أن المصالحة معه أحسن من الحرب، واتفقوا معه صلحاً وسلموا له البلاد ثم انتقلوا إلى الزبارة . وقد استلم سلطان مسقط رهينة أخاهم محمد بن أحمد آل خليفة حتى لا يحاولون مهاجمة البحرين، وبعد مقتل السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي اتصل آل خليفة بالإمام سعود وطلبوا منه المساعدة لاسترجاع البحرين، فأرسل لهم قوة بقيادة إبراهيم بن عفيصان، واستطاعوا استرجاع البحرين وطلب آل خليفة من بن عفيصان أن يسلموا لهم البلد، فقال لهم : ائتوني بأمر من الإمام في الدرعية لأسلمكم البلد، واحتل ابن عفيصان قلعة الديوان في المنامة، فانتقل آل خليفة إلى الزبارة، وجاءتهم سرية من الدرعية بقيادة سليمان بن سيف بن طوق وكانت الزبارة محصنة لهاسور، ونزلت السرية على ماء يسمى حلوان قرب الزبارة . وأرسل أميرها سلمان بن سيف بن طوق إلى الشيخ سلمان وأخيه الشيخ عبد الله أن يقابلاه وقال عبد الله لسلمان : أنا سأخرج إذا مسكوني فبلدكم حصينة، وإذا اشتد عليكم الحصار ورأيتم صعوبة أمركم في المدينة فاركبوا سفنكم واتجهوا إلى أي مكان، فلم يوافق سلمان على ذلك وقال سأتوكل على الله، وخرج هو وكبار قومه من الزبارة لمقابلة سليمان بن سيف بن طوق، وهناك طلب من أهل الزبارة أن يفتحوا الأبواب، وقال لكبار آل خليفة : أنتم تذهبون إلى الدرعية لمقابلة الإمام وأرسل معهم سرية ترافقهم، وهم : الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة، والشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة، وابن أخيهم الشيخ عبدالله بن خليفة بن محمد آل خليفة، ومحمد بن صقر المعاودة، والشاعر عبد الجليل بن ياسين الطباطبائي، والسيد عبد الرحمن الزواوي، ولما وصلوا إلى نجد أمر آل خليفة الثلاثة بالبقاء في الدرعية، وسمح للباقين الرجوع إلى الزبارة . وقد سر بذلك رحمة كثيراً وكان سكان الزبارة يذهبون بسفنهم إلى الهند للتجارة وقد سافر الشيخ عبد الرحمن بن راشد الفاضل إلى الهند بسفينته الجابري، ومر على سلطان مسقط السيد

سعيد بن سلطان البوسعيدي والشيخ عبد الرحمن الفاضل وهو ابن أخت الشيخين سلمان وعبد الله ابني أحمد آل خليفة، وطلب منه المساعدة لاسترجاع البحرين فأمده بمال وكتب له رسالة ليذهب بها إلى سواحل وجزر فارس لكي يساعدوه، وكان للسلطان بعض النفوذ على السواحل، واستطاع عبد الرحمن أن يجمع قوة من العرب من سواحل فارس كما كتب لأهل الزبارة أن يستقبلوه في البحر ويهاجم معهم البحرين، وفعلاً قابله شباب من سكان الزبارة وهاجموا البحرين بالقوة التي جمعها الشيخ عبد الرحمن الفاضل فأخرجوا بن عفيصان من البحرين، وخرج بن عفيصان إلى قطر، وقابله سليمان بن سيف في الزبارة ورجع رحمة بن جابر إلى قطر وآزر ابن عفيصان، ووصل الخبر إلى الدرعية بما حدث ؛ واجتمعوا بسلمان وعبد الله وسألوهما : لماذا يقوم أبناؤكما بهذا العمل ؟ وقالوا : لو تركتونا في البحرين لحفظناها لكم ولنا .

وفي هذا الوقت كان محمد علي باشا يهاجمهم في الحجاز، ولم يرغبوا في فتح جبهتين، وأرسلوا وفداً إلى البحرين، فاستقبلهم أهل البحرين بجفاء، وأكثروا أمامهم من شرب الدخان ؛ فرجعوا إلى الدرعية فأخبروهم أن أهل البحرين مخالفون ويشربون الدخان، فاجتمع الإمام بسلمان وعبد الله فقالا له : أطلقوا سراحنا وسوف نصلح الأحوال ونعيد المياه إلى مجاريها، وأطلق سراحهم الإمام سعود وأعطاهما بعض النقود، وأعطاهما رسالة إلى والي الإحساء لمساعدتهما بالرجال لمهاجمة البحرين في حالة الامتناع، ولما وصل الخبر إلى رحمة، وابن عفيصان بإطلاق سراحهما كتبوا إلى الإمام : لا تطلقوا سراحهما لأنهما هم رؤساء البلد، وأرسل سرية خلفهما لتعيدهما إلى الدرعية ؛ ووصلا إلى البر وكانت السفن تنتظرهما حول ميناء العجير وركبوا السفن والسرية أدركتهما وأطلقت عليهما النار ولكن الرصاص لم يصبهما وارتحلا إلى البحرين .

وفي ذلك الوقت كان رحمه بن جابر وابن عفيصان قد جهزا قوة لاحتلال البحرين ثانياً، وقد أرسلت البحرين سفناً لمقابلة هذه القوة، ولما نزل عبد الرحمن بن أحمد إلى البحرين، ذهب رأساً إلى السفن لقيادتها ووصل إليها وقادها فعلاً وكان الوقت آخر النهار عندما تقابل الطرفان، فقال رحمه لابن عفيصان : أن عبد الله بن أحمد هو قائد السفن فقال له : إن عبدالله بن أحمد موقوف في الدرعية فرد عليه رحمه وقال له : سوف أعمل إشارة وأثبت لك أن عبد الله بن أحمد هو القائد فوضع سراجاً في سفينة صغيرة تسمى قلص ورمى له أنجر في البحر وطلع في سفينته إلى الشمال، وقال : نحن سنكون في عاليهم وننتصر عليهم بالرياح الغربية، ولما كان عبد الله هو القائد رأى النور يتقلب في السفينة الصغيرة والموج يحركه، وقال إن رحمه تعلى علينا فأمر سفنه أن تتعلى على رحمه ؛ وطرح ولما أصبح الصباح وجد رحمه السفن أعلى منه فقال لابن عفيصان : أنا قلت لك أن السفن فيها عبد الله بن أحمد ورأى رحمه أن قوته لا تقارن بقوة السفن التي فيها عبد الله بن أحمد وأنهم أقوى في البحر، فأراد أن يهرب فقال له ابن عفيصان معارضاً : كيف تهرب ؟

لا خير في رجل يجر جريره وإذا تضايق دربهــا خلاهــا

فرد رحمه : مانخليها ولكن سترى فطرح، ووصلت سفن البحرين واشتبكت معه في مكان يسمى خكيكرة سنة ١٢٢٥هـ - ١٨١٠م واشتدت الحرب بين الطرفين وجرت مرازيم السفن بالدماء وقتل في هذه المعركة الشيخ راشد بن عبد الله بن أحمد آل خليفة وقال رجال للشيخ عبد الله : ابنك راشد، قال : ارموه في خن السفينة ياما في ظهري من راشد .

وبعد معركة خكيكيرة انتقل سكان الزبارة إلى البحرين ونزل الشيخ سلمان الحاكم الرفاع وبنى قلعة الرفاع وجعلها مقراً لحكمه ونزل معه أتباعه ونزل الشيخ عبد الله بن أحمد المحرق وبنى قلعة بو ماهر حماية لماء الشرب الذي

تشرب منه المحرق في البحر وهو غير بعيد من القلعة وسكن أتباعه في مدينة المحرق وتسمى كل فريق بالقبيلة التي سكنت ابتداءً من الساحل الجنوبي للمحرق وبنى الشيخ عبد الله بيوتاً في وسط مدينةالمحرق، أما الشيخ رحمه بن جابر الجلاهمة، فنظراً لتقلبه في ميوله بين الدرعية ومسقط فقد أغضب سلوكه هذا الإمام سعود الكبير بن عبد العزيز وطرده من الدمام فانتقل من مكان إلى مكان وأصبح قرصان بحر يهاجم السفن وينهبها، وخاصة سفن البحرين ؛ وفي إحدى غاراته على البحرين تبعته قوة بحرية من البحرين وحاصرته في رأس تنورة وقد غربت الشمس فقالوا نحاصره إن ظهر فنحن في وجهه ومن الجهة الشرقية يحيط به حد رأس تنورة، والبر من الشمال ونتركه إلى الصباح، وفي الصباح نهاجمه ؛ ولما أصبحوا في الصباح لم يجدوا رحمه في مكانه وإذا هو في الليل قد حفر الرمال وشق طريقا لسفينته وخرج من الفتحة التي شقها في حد رأس تنورة وهرب .

واشتدت العداوة بينه وبين الشيخ عبد الله بن أحمد، وحرض سلطان مسقط سعيد بن سلطان على مهاجمة البحرين، فهاجموها في جزيرة سترة لأنه لم يستطع الدخول من القليعة حيث أغرق فيها سفناً مشحونة بالحجارة فنزلوا سترة، وقال له سلطان بعد أن أخذ مدة لم تظهر عليه أي قوة من البحرين: [وين عتيباتك ياشيخ رحمه] فغضب رحمة من تصغير اسم قبيلته، وأجابه: [يجهزون عشاك يا حضرة السلطان] وغضب فانسحب في سفينته المجموعة راحلاً من البحرين، أما السلطان فقد نزلت عليه قوات من الرفاع وهزمته فركب سفنه راجعاً إلى مسقط .

فلما كانت سنة ١٢٣٥هـ - ١٨٢٠م وعقدت بريطانيا معاهدة الساحل المتصالح مع مشايخ الخليج دخل رحمه بن جابر في معاهدة الصلح البريطانية وتوسطت بريطانيا بينه وبين حكام البحرين لتصلح بينهم ليهدأ البحر وزار

رحمه الشيخ عبد الله بن أحمد وأبناءه بالمحرق ثم طلب أن يقابل الشيخ سلمان بن أحمد بالرفاع وذهب إلى الرفاع وطلب مقابلة أبناء سلمان، وكان من عادته إذا دخل المجلس عند الأبناء يأمر هو بالقهوة، فلما ذهب إلى أحمد بن سلمان قال أحمد بن سلمان لخدمه [حال دخول رحمه إلى المجلس تدخلون القهوة وإذا ظهرت القهوة يدخل الحلو ثم الطيب ولا تدعوا له فرصة بالأمر على القهوة] وكانت أم أحمد بن سلمان من قبيلة الجلاهمة، وكان رحمه من أخواله فقال رحمه بعد خروجه من المجلس : [إذا كان هناك من سيقتلني فهو أحمد] وبقي رحمه على عمله يهدد البحر والسفن، وإذا وجد أي سفينة للبحرين يقتل أصحابها وكان في أوج قوته يجمع حوالي ألفي مقاتل في سفنه .

ولكن في آخر أمره ضعفت قوته وتفرقت عنه جماعته ولم يبق معه إلا القليل، وفي يوم من الأيام هاجم البحرين وسمى هذا الهجوم (بيوش) الهرفي وجاء إلى فرضة المنامة ووجد فيها طليان (خراف) للحاكم فاستولى عليها وكانت هناك سفينة كبيرة تتبع الأحمدة من رأس الرمان وقفاً على مأتمهم يسمي نوع السفينة (القنجه) جاءت محملة بالأرز من الهند ورست في المزروعية، حيث ألقت مراسيها وكان فيها اثنان يحرسانها فقتلهما رحمه واستولى على السفينة وقال في حق الشيخ عبد الله بن أحمد حاكم البحرين :

خذنا القنجة والاشقر يشوف ومن على الفرضة نهبنا الهروف

فأمر عبد الله أبناءه وأبناء أخيه سلمان بملاحقة رحمه وتأديبه ؛ فخرجت السفن خلفه ولكنه ذهب إلى القطيف وباع الأرز هناك، ولحقت به سفن البحرين وهو لايزال في القطيف فلما رأى سفن البحرين خرج من ميناء القطيف متوجهاً إلى عرض البحر ليهرب منهم واستطاع أن يتقدم عليهم والسفن خلفه وكان الهواء خفيفاً .

وكان الشيخ عيسى بن طريف البنعلي في سفينته والشيخ أحمد بن سلمان في سفينته فقال عيسى لأحمد : هل تريدون الرجل أم تريدونه يهرب ؟ قال له نريده . قال: إذن دعني أنزل رجالي مع رجالك في سفينتك ونركب عليها مجاديف السفينتين لنلحقه لأن الهواء ساكن ؛ فوافقه وأسرعوا بالسفينة حتى لحقت برحمه فسأل رحمه وكان قد كبر في السن وضعف بصره، قال : ماهي السفينة التي تلحقنا ؟ فأجابوه : سفينة أحمد بن سلمان، فقال : يشرع ولد مريوم، فسألوه : ليش؟ لأنه لم يلامس ناعمات الأبدان، وفعلاً وصلت سفينة الشيخ أحمد بن سلمان إلى سفينة رحمه "غطروشة" وتقابلت السفينتان، وكانوا يبدأون برمي الخشب يشعلون فيه النار ويرمونه على بعضهم البعض قبل أن تلتحم السفينتان ويشعلون النار في الموقع المعد لإشعالها في السفينة ويسمى السريدان . واستطاع رجال أحمد التغلب على جماعة رحمه وقتل ابن عمه محمد الذي كان يعتمد عليه، فسأل عن عبده طرار فقيل له بأنه قد قتل فأخذ ناراً من السريدان ورماها في البارود فانفجرت السفينة بمن فيها واشتعلت فيها النيران، وكان ذلك سنة ١٢٤٢هـ الموافق ١٨٢٦م .

وهكذا انتهى الرجل الذي جعل الحرب والقتال مسلكه الوحيد وكان له أخ اسمه عبد الله بن جابر لم يشاركه في الحرب، وقد أنجب عبد الله بن جابر الجلاهمة وذريته لاتزال تعيش في البحرين، وأبناؤه سليمان وابنه عبد الله بن سليمان وصباح وبشر .

أما رحمه فله ولد واحد اسمه بشر بن رحمه، سلك مسلك والده في دخول المعارك السياسية وقتل في إحدى المعارك (معركة رأس تنورة) بين آل عبد الله وآل سلمان . ويقول المؤرخ أمين الريحاني عن رحمه بن جابر الجلاهمة في كتابه ملوك العرب رحم الله كل من مات بطلاً في ساحة الوغى .

عبد الله بن خالد آل خليفة